مداخلة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت، تحت عنوان الكتاب المقدّس والتقليد: الإشكاليّة العامّة ومحاور البحث، في المؤتمر الأوّل : من الوحي إلى الكتاب، يوم الجمعة الواقع فيه ٢٨ شباط (فبراير) ٢٠٢٠، salle polyvalente، حرَم العلوم الإنسانيّة.

عندما نكتب أو نفكّر في إشكاليّة التقليد والكتاب المقدّس، ونريد الإشارة هنا إلى التقليد الرسولي أي الآتي عبر الرسل الإثني عشر، فإنّما نسعى لإيجاد الأساس للإيمان الذي نعلنه كمؤمنين مسيحيّين. فما هو الأساس؟ الجميع يتّفق على أنّه الوحي الإلهيّ أي دخول الأبديّة في إطار الزمان. هذا الوحي هو في الوقت عينه بلاغ ونداء لعلاقة مع الكائن الذي يتعالى عنّا وفي الوقت نفسه هو معنا. وهذا الوحي يستثير في الإنسان الإيمان أو الاعتقاد قبل أن يتبلّغ المضامين الحقيقيّة الإلهيّة. تصديق الوحي أو الإيمان هو بحاجة إلى طاقة هائلة لا يألفها الإنسان في ملكاته الإنسانيّة الصرف. لذلك نقول إنّ الروح القدس يسارع لإعانة حركة الإيمان لتتبيّن له حقائق الوحي بوضوح. وترسيخًا لهذا القول، يتطلّب ذلك طاعة الإيمان، وجميع المسيحيّين يتّفقون على ذلك.

أ– ماذا تقول الكنيسة الكاثوليكيّة في هذا المجال؟

تعود الكنيسة إلى ما كتبه الرسول بولس لتلميذه تيموتاوس موصيًا بالتمسّك بالكتب المقدّسة قائلاً: "كلّ الكتاب هو موحى به (theopneustos) من الله ونافع للتعليم والتوبيخ للتقويم والتأديب الذي في البرِّ لكي يكون الإنسان كاملاً متأهّبًا لكلّ عمل صالح" (٢ تيموتاوس ٣:١٦). ويفسِّر القدّيس بطرس في رسالته الثانية (٢ بطرس

١:٢١) فيقول: "لأنّ كتابة الكتاب لم تأتِ نبوءة قطّ بمشيئة إنسان بل تكلّم أناسُ الله القدّيسون مسوقين من الروح القدس". فالكتاب المقدّس هو نفحة الله، استخدم مجموعة من الناس ليسجّلوا ما أراد أن يقوله للبشريّة مع قدرته أن يحفظهم بالروح القدس.

هذه القدرة هي التي تحرّك القلب وتوجّهه نحو الله وتزيد البصيرة معرفة وبواسطة مواهب الروح القدس يزداد إدراك الوحي في النفوس يومًا بعد يوم.

إنطلاقًا من هذا المفهوم العام طُرِحَ السؤال الأساسيّ والمؤسّس: بأيّة وسيلة وبأيّة واسطة يأتي هذا الوحي؟

بالنسبة إلى الكنيسة الكاثوليكيّة مرّة جديدة، هذا الوحي المُنبت للإيمان والمثبّت له يأتي عن طريقين مختلفين الواحد عن الآخر وهما التقليد والكتاب المقدّس إلاّ أنّهما مرتبطان الواحد بالآخر ارتباطًا وثيقًا. يقول الدستور من المجمع الفاتيكانيّ الثاني في الوحي الإلهيّ في المادّة ٨١، رقم ٩ : "التقليد المقدّس والكتاب المقدّس مرتبطان أحدهما بالآخر ومتّصلان اتّصالاً وثيقًا إذ إنّهما ينبجسان من ينبوع إلهيّ واحد ولا يؤلّفان إذا صحّ القول، إلاّ كلاًّ واحدًا ويسعيان إلى غاية واحدة." هذا وذاك يجعلان سرّ المسيح في الكنيسة حاضرًا وخصبًا، المسيح الذي وعد بأن يمكث مع خاصّته "أبدًا إلى منتهى العالم" (متّى ٢٨:٢٠) فالكتاب المقدّس هو كلام الله مدوّن بإلهام من الروح القدس. أمّا التقليد المقدّس فهو يستقبل كلمة الله التي سلّمها السيّد بقوةّ الروح القدس إلى الرسل وينقلها صحيحة إلى خلفائهم ليبشّروا بها مستنيرين من الروح القدس". مع العلم أنّ نقل الإنجيل تمّ على وجهين، الشفوي، "على لسان الرسل الذين نقلوا عن طريق

بشارتهم أو سيرتهم النموذجيّة أو تنظيمهم القانون كما تسلّموه مباشرة من السيّد المسيح أو بإيحاءات الروح القدس".

التقليد المقدّس، في هذه الحال، وهو الطريق الأوّل على حدّ وصف الدستور في الوحي الإلهيّ بحسب المجمع الفاتيكاني الثاني، يحملُ كلمة الله التي ألقى بها المسيح السيّد والروح القدس إلى الرسل ونقلها بحذافيرها إلى خلفائهم، حتى إذا كرزوا بها وهم في غمرة أنوار الحقّ، يحافظون عليها ويعرضونها وينشرونها بأمانة (المادّة ٨١، رقم ٩). وبالتالي فالكنيسة التي أودعت نقل الوحي وتفسيره لا تقتصر على الكتاب المقدّس في الوصول إلى يقينها في جميع نقاط الوحي. فمهمّة الكنيسة تقضي بتقبّل التقليد والكتاب المقدّس واحترام كليهما بعاطفة المحبّة والاحترام نفسها.

وتقول الكنيسة الكاثوليكيّة أيضًا في موضوع التقليد إنّ ما نتكلّم عنه ذلك هو الذي صدر عن الرسل، ولذلك يُسمّى بالتقليد الرسوليّ وهو ينقل ما أُلقِي إليهم من تعليم يسوع ومثله وما تلقّنوه من الروح القدس، حيث لم يكن بعد لدى جيل المسيحيين الأوّل عهد جديد مكتوب، فالعهد الجديد المكتوب نفسه يثبت نهج التقليد الحيّ. ومن الرائج أن يتمّ التمييز بين التقليد الرسوليّ وباقي التقاليد الكنسيّة اللاهوتيّة والقانونيّة والتنظيميّة والليتورجيّة أو التعبديّة التي نشأت عبر الأزمان وتؤلّف صيغًا خاصّة مستمرّة في التقليد الكبير وهي لا تستطيع البقاء إلاّ في نوره واستنادًا إلى حكم السلطة التعليميّة.

أمّا الكتاب المقدّس في نظر الكنيسة الكاثوليكيّة فهو الموضع الذي فيه تتجلّى للجميع إرادة الحبّ الإلهي وكذلك هو الموضع الذي تمّ فيه البحث عن مضامين الوحي الإلهيّ. هذا الحبّ لا يصل إلى غايته ما لم ينكبّ المؤمن على استجلاء التدبير الإلهيّ الذي

ينطوي عليه الكتاب المقدّس. "وفي الكتاب يظهر تنازل الحكمة الإلهيّة الأزليّة [...] حين اتّخذ كلمة الآب الأزليّ يومًا بالجسد وهن الحياة البشريّة وطبيعتها وصار شبيهًا بالبشر" (الدستور في الوحي الإلهيّ رقم ١٣). فالله عزّ وجلّ لا يخاطب الإنسان بكلام إلهيّ صرف، إذ أنّه يأخذ بعين الاعتبار محدوديّة الطبيعة البشريّة في اقتبال الألوهة، فيُعلن عن المشيئة الخلاصيّة في قوالب شتّى من التعبير البشريّ. وكما يقول اللاهوتيّون العرب، يتدرّع الكلمة الإلهيّ الطبيعة البشريّة فينسلك الكلام الإلهيّ في سياقات التعبير البشريّ حتّى يستطيع الإنسان أن يدركه ويستثمره استثمار الالتزام الكيانيّ والوجوديّ الأعمق.

فالتقليد هو منشئ الكتاب من حيث الاعتراف بصحّة التعاليم التي يتضمّنها الكتاب، والكتاب منشئ للتقاليد من حيث الإقرار بسموّ المبادرة الإلهيّة وتقدّمها في عمليّة التحقّق التاريخيّ.

ب– ماذا عن موقف الإصلاح الإنجيليّ في القرن السادس عشر؟

نعرّج بشكلٍ مباشر إلى موقف الإصلاح المسيحيّ في القرن السادس عشر حيال العلاقة بين التقليد والكتاب المقدّس. فإعلان أوغسبورغ الاعترافي في السنة ١٥٣٠ ينتقد الآثار السلبيّة لتعدّد التقاليد التي تثقل مسيرة الكنيسة الكاثوليكيّة وتحوّل أنظار المؤمن عن الكتاب المقدّس. فالتقليد عندما يصبح هو القاعدة والقانون فذلك يقتل الروح. فيليب ميلانكتون الذي حرّر الإعلان يتأسّف أن تكون تقاليد الكنيسة قد حجبت وصايا الله وأن تكون أعمت الضمائر. فالمؤمن الذي أخافته الطقوس المتعدّدة والمتناقضة أحيانًا، تحوّل إلى مجرّد رهينة في قبضة هذه التقاليد وأضاع نقاوة الإيمان وفحواه. أمام هذا الواقع أبرز الإصلاح قاعدته الذهبيّة: الكتاب وحده هو مصدر الإيمان، بمعنى أنّ هذا الإيمان

المستند إلى الكتاب هو الذي يبرِّر وهو الذي يُخلّص ويعطي المعنى للتقليد إن وُجد ذلك التقليد. فالطقوس البشريّة كما يقول الإعلان ليست هي علّة الخلاص وليست مصدر التبرير والنعمة ومغفرة الخطايا.

إلاّ أنّ لاهوتيّي الإصلاح لم يلغوا التقليد بالكامل وبشطبة قلم. إنّهم يعرفون. إنّهم يعرفون أنّ الكتاب المقدّس، وخصوصًا العهد الجديد بأناجيله، حتّى وصل إلينا إنّما تمّ بالنقل وأنّ الكتاب هو ثمرة تقليد شفهيّ في البداية. يقول اللاهوتيّ إيبلينغ إنّ "مبدأ الكتاب وحده ليس معاديًا للتقليد لا بل أنّ هذه القاعدة تشكّل نوعًا من التقليد". إلاّ أنّ الإصلاح بشكلٍ عام يشدّد على أهميّة القاعدة: الكتاب المقدّس ثمرة تقليد شفهيّ هو القاعدة الوحيدة لاستقامة الإيمان.

ج– إنّ هذه المواقف من التقليد والكتاب المقدّس توصلنا إلى النقاط التالية:

أوّلاً: إنّ التفكير المعاصر، اللاهوتيّ والفلسفيّ، يشدّد على تاريخيّة محتوى الفكر أيًّا كان. فالإنسان ليس لديه المدخل إلى محتوى دينيّ أو فلسفيّ أو سياسيّ معيّن إلاّ عبر سياق تفسيريّ أو تأويليّ. فلا نستطيع القول إنّنا ندخل إلى نصٍّ خامّ، بل إلى نصٍّ قد فسّره تقليد معيّن. والجميع متّفق أنّ جوهر الإعلان في الكتاب المقدّس بعهدَيه القديم والجديد هو الحياة، يسوع المسيح الذي فيه ومنه كلّ شيء.

ثانيًا: كما رأينا وهذا موضوع توافق واتّفاق، إنّ الكتب المقدّسة هي كتاب موحى بها بإلهام من الروح القدس. فهي لم تنزل تنزيلاً بالنسبة إلى المسيحيّين أو أنّه تمّ إسقاطها تسقيطًا بل إنّها كتبت على يد بشر ومن ثمّ نُقِلَت بفعل البشريّ والإعلان إلى مجموعة

من الناس التي صدّقتها. مع العلم أنّ روح الله بشكل مبدأ الحياة في كلّ كائن بشريّ (تك ٢،٧ ؛ أيّوب ٣٣،٤) وهو الذي يكوّن الذكاء في الإنسان والحكمة المتعالية هي هبة منه (أشعيا ١١،٢ ؛ ٤٢،١). وبالتالي فإنّ الله بحكمته هيّأ بشرًا يكتبون ويحفظون وينقلون بإلهام من الروح القدس بلاغاته إلى البشريّة.

ثالثًا: السؤال الأبرز وهو سؤال سوف يطرح مرارًا في هذا المؤتمر: من هي السلطة التي لها الحقّ في التفسير والتأويل؟ أهي سلطة البابا وحده في ظروف محدّدة أو سلطة المجامع أو سلطة الأساقفة التعليميّة كما الأمر عند الكاثوليك، أم هي سلطة الجماعة المسيحيّة مع العلم أنّ هذه السلطة لا تعلو كلمة الله بل هي الخادمة الأمينة المتواضعة لها؟ وما هي المقاييس والقواعد التي يتبعها ويستند إليها المفسِّر ليأتي تفسيره صحيحًا وكيف يعمل الروح القدس في هذا المجال؟ لقد توقّف المجمع الفاتيكانيّ الثاني عند مسألة التوفيق بين إدراك مضامين الوحي الإلهيّ وبحسب اختبارات الوجود الإنسانيّ إذ إنّ المسيحيّة تعتقد اعتقادًا صادقًا أنّ محتوى الأمر الإلهيّ يلائم أبهى ما ينعقد عليه كيان الإنسان من توق إلى الإنجاز الذاتيّ. وبالتالي فإنّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني هو أمام تأوين التفسير ليكون الوسيلة التي من خلالها ينشط الروح القدس في عمله في تحريك إيمان الأعضاء المنتمين إلى الجماعة الواحدة التي هي جسد المسيح الحيّ. ولا شكّ أنّ من بين اختبارات البشر العظيمة منظومة حقوق الإنسان وواجباته التي اتّفقت عليها الجماعة البشريّة أساسًا ومحرّكًا لوجودنا ونشاطاتها الاجتماعيّة والبيئيّة والسياسيّة.

أمّا في نظر الإصلاح والمصلحين، فهناك فرق بين نظرتهم والنظرة الكاثوليكيّة. بالنسبة إلى لوثر السلطة التي لها القدرة على التفسير ليست الكنيسة عبر سلطتها التعليميّة بل

هو الضمير البشريّ الفرديّ المرتبط الارتباط الوثيق بكلمة الله. فالتفسير التقليديّ السابق للإصلاح ليس حكمًا مرتبطًا الارتباط الوثيق بالكتاب المقدّس. الكتاب وحده يعني الكتاب وحده من دون التفسير التي تقوم وقامت به الكتب. فمع الإصلاح أصبح التفسير تفسيرًا نقديًّا للمؤسّسة الكنسيّة وبالتالي فإنّ باب الإصلاح أصبح مشرّعًا ليأخذ الكتاب موقع المؤسّسة الكنسيّة وسلطاتها. ومن تبعات هذا التحوّل الجذري أنّ الإصلاح تخلّى عن التفسير المجازيّ واعتمد التفسير الحرفيّ أو الطبيعيّ أو التاريخيّ مكان المجازيّ الذي يفتقد البُعد الفكريّ والعقلانيّ الجدّيّ.

وهكذا نختم بالقول إنّ إشكاليّة التقليد والكتاب المقدّس ليست إشكاليّة من الماضي وحسب أو أنّها تستورد ما قاله الماضي في هذا السياق، بل إنّها إشكاليّة راهنة لأنّك عندما تفسّر اليوم الكتاب المقدّس تفسيرًا يقوم على قواعد عقلانيّة وروحيّة صارمة، إنّما تولّد لك وللذين حواليك تقليدًا حيًّا له مقوّماته ومسوّغاته وله أيضًا آثاره الحسيّة كما حدث مع موضوع لاهوت التحرير الذي استند بشكل رئيسي على قراءة لاهوتيّة للكتاب المقدّس وللأناجيل خاصّة أو مع موضوع الفصل بين الدين والدولة وذلك ما شدّد عليه المجمع الفاتيكاني الثاني وكذلك موضوع العلاقة بين الأديان أو لاهوت الأديان الذي استند أيضًا إلى التأويل الكتابي. من هنا أمران ينبغي مراعاتهما: مبدأ السلطة الفكريّة أو القانونيّة التي تواكب مبدأ التفاعل بين الكتاب والتقليد وكذلك ضرورة التثقيف الروحي والكتابي واللاهوتي الذي يعطي المفسّر والمؤمن الأدوات الصالحة للتفسير والتأويل وإنشاء تقليد جديد يتآخى والكتاب ولا يهمّشه أو يلغيه.